تعقيب وزارة التربية والتعليم العالي على وقائع الندوة كما ورد من قسم المناهج*

قراءة متأنية في كتاب
القدس ... الوطن والروح، خطة مرجعية

علي مناصرة
مدير عام المناهج الإنسانية والاجتماعية
وزارة التربية والتعليم العالي

هذا الكتاب، هو آخر ما صدر عن مركز المناهج الفلسطيني، الإدارة العامة للمناهج الإنسانية والاجتماعية، بعد أن قام المركز بإصدار المناهج الفلسطينية كافة، بدءاً من الصف الأول الأساسي وحتى الثاني عشر بفروعه جميعها، والكتاب عبارة عن خطة مرجعية، تحتوي على أهداف ومفردات تعكس هذه الأهداف، وأساليب وأنشطة مقترحة لتنفيذه. وقد أعد بمناسبة اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية للعام 2009. وقد خطط ليدرس خلال عام ميلادي واحد هو العام 2009، ولم يكن أصلاً جزءاً من خطة المناهج، على الرغم من أن القدس تمثل موقعاً بارزاً في الخطة الأصلية للمناهج وفي الأنشطة التربوية كافة.

ومما يثير الاستغراب، أن يدعو أحد المراكز التربوية إلى اجتماع لتقييم الكتاب،[1] ويدعو مجموعة من التربويين والأكاديميين والمثقفين –حسب الخبر المنشور في صحيفة الأيام بتاريخ 26/ 3/ 2009 – دون أن توجه دعوة إلى وزارة التربية والتعليم العالي، صاحبة الشأن، على الأقل لسماع الآراء وتبادلها مع نخبة من المثقفين، وبيان وجهة نظرها في هذا الكتاب، والاستفادة من الآراء كافة، وذلك على الأقل لتكون الطبعة الثانية من الكتاب أكثر دقة من الأولى، وحتى نترجم فعلاً مفهوم الشراكة الحقيقية في العملية التربوية، بعيداً عن مجرد رفع الشعارات، فنحن أحوج ما نكون –وبخاصة هذه الأيام– إلى سماع بعضنا، ليس من خلال الصحف فحسب، ولكن باللقاء المباشر والحوار الجاد المسؤول، فوزارة التربية والتعليم العالي لم تغلق أبوابها يوماً، ولن تغلق أبوابها أمام من يبدي رأياً أو ينقد موقفاً أو عملاً أو كتاباً، مع تقديرنا لكل الآراء التي تؤدي بالنهاية إلى الارتقاء بالعمل، وتساهم في تحسين العملية التربوية التي هي مسؤوليتنا جميعاً، فكان أن عمد هذا المركز إلى محاكمة الكتاب بشكل خاص، والمناهج الفلسطينية بشكل عام، وفي غياب الوزارة التي قامت بهذا العمل، الأمر الذي يشكل خللاً في مصداقية هذه المحاكمة، وأهدافها أصلاً.

وقد أبدى المجتمعون آراء مختلفة في هذا الكتاب، نقدر أصحابها، ونحترم وجهة نظرهم، ولكن حتى تكون الأمور في نصابها الصحيح لا بد من توضيح الأمور الآتية:

1. الكتاب هو خطة مرجعية للنشاطات التي يقترح أن تتم في المدارس، وليس كتاباً مدرسياً بالمفهوم التقليدي للكتاب، وقد أعطى المرونة الكافية، للمعلم والطالب للبحث والاستقصاء والدراسة حتى يحقق الهدف المنشود، ونحن على ثقة بأن معلمينا وطلابنا يستطيعون إغناء محاور الكتاب بجهودهم. فما أجمل أن يقوم طالب ما في مدرسة ما بتحضير حصة يقدمها لزملائه في غرفة الصف عن أي درس أو محور من محاور الكتاب، حتى تكون المعرفة أثبت في الأذهان من مجرد تلقين معلومات طالما نقدنا أنفسنا ونقدنا غيرنا في طريقة عرضها، وقد لاقى المعلمون –كما ذكر لي بعضهم– ارتياحاً واستحساناً من طرح المادة بهذه الطريقة، وشعر المعلمون بأن هناك جديداً في هذا الكتاب، وتحديداً في عرضه للأهداف والمحتوى بهذه الطريقة. وهنا يحق لنا أن نتساءل: أليس ما يقوم به الطالب نفسه من بحث واستقصاء أكثر فائدة له، وأكثر رسوخاً وديمومة في ذهنه من دروس جاهزة يقوم بحفظها واستظهارها؟

2. يهدف هذا الكتاب إلى تحفيز الطلبة، والمعلم للبحث عن المعرفة اللازمة عن القدس، جغرافياً وتاريخياً ودينياً واجتماعياً وثقافياً وأدبياً من أجل تعزيز الانتماء إليها والدفاع عنها، كما هو وارد في الكتاب، فهل هذا الهدف غير واضح؟ وهل الرسالة الكامنة خلفه غير جلية؟

3. تضمن الخبر المذكور كلمات وجملاً وأحكاماً عامة تفتقر إلى اللياقة النقدية، فقد ورد "أن الكتاب قد اختصر القدس بشكل مريب، وهو ما يتناسب مع ما طرحه أحد المفاوضين الإسرائيليين في المفاوضات حين قال لكم قدسكم ولنا جروسلم". كما ورد في موطن آخر "إن هذا الكتاب هو أسوأ ما كتب حول القدس، وأنه قدم سردية واحدة للقدس هي السردية الإسلامية في أضعف معانيها، حيث أفقدها عمقها القيمي والأخلاقي، واستخدم تعويضاً عن هذا الغياب غنائية شعرية شكلية ذات مخيلة كسيحة"، وورد في الخبر أيضاً "أن تاريخ القدس اختصر في كلمات وقصائد منسوجة بهذه السرعة، ومتأثرة كثيراً بالإسرائيليات". وغير ذلك الكثير، ونحن نرى أن هذه كلمات متعجلة، لا تليق بالنقد التربوي الذي يؤدي إلى تطوير الكتاب،

* هذا التعقيب هو ما أرسلته لنا وزارة التربية والتعليم العالي إثر إرسالنا ملف الندوة لكي تقوم بالتعقيب، علماً بأن هذا التعقيب قد نشر في الموقع الإلكتروني لوكالة (معاً) الإخبارية، كما نشر في العدد الأخير من جريدة «مسيرة التربية والتعليم العالي» (العدد 65، أيار 2009) الصادرة عن الوزارة.

وهي انطباعات شخصية تفتقر إلى العلمية والموضوعية، ولا تتفق مع مفاهيم المناهج وأسسها ولا حتى مع القيم التربوية.

4. تناول الكتابُ القدسَ منذ العصور القديمة، زمن أجدادنا الكنعانيين حتى اليوم، أي منذ أن بنى أجدادنا العرب الكنعانيون يبوس مروراً بالفتح الإسلامي للقدس، وغزو الفرنجة لها والاحتلال الإسرائيلي لها، وخنق المدينة بجدار الفصل العنصري، وما ترتب عليه من معاناة وعزل، ومحاولات طمس للوجود العربي في المدينة، وسياسة التهويد التي يمارسها الاحتلال، والاستيطان الذي يهددها ويحيط بها، وسياسة الاحتلال كذلك في التضييق على السكان العرب بوسائل شتى من منع تراخيص البناء للعرب، وفرض الضرائب الباهظة عليهم، ومنعهم مسلمين ومسيحيين من ممارسة شعائرهم الدينية، وغير ذلك الكثير.

ألا يعد هذا تسلسلاً منطقياً للأحداث التاريخية؟
ألا يعدّ هذا نضالاً للمقدسيين وصموداً لهم؟
ألا يعطينا هذا صورة واضحة عن حيثيات الحياة اليومية للمقدسيين ومعاناتهم؟

5. ضم الكتاب اثني عشر نصاً شعرياً، ما بين نشيدة قصيرة سهلة لطلبة المرحلة الأساسية الدنيا وحتى رائعة القدس للشاعر تميم البرغوثي. وقد آثرنا في الكتاب أن نختار مجموعة من القصائد التي تتحدث عن القدس، ولا ندّعي أن هذا أجمل ما قيل في القدس، لأنه لا أحكام قطعية في الأدب، ويستطيع الطلبة والمعلمون أن يختاروا معها ما أرادوا من الأشعار التي تتفق وذوائقهم الشعرية، وقد ذكر بعض من نقد الكتاب أن ما قدم عن القدس من شعر " هو نموذج ميت وإنشاء فارغ من حيث الشكل اعتمد على نمط واحد من الشعر العمودي المبالغ فيه" وهنا نتساءل، هل قصيدة هارون هاشم رشيد بعنوان "جذور" إنشاء فارغ وشعر عمودي؟

وهل قصيدة نزار قباني التي يقول فيها:
من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟
من ينقذ الإنجيل؟
من ينقذ القرآن؟
من ينقذ الإنسان؟

إنشاء فارغ وشعر عمودي؟ وهل قصيدة الأخوين رحباني بعنوان زهرة المدائن- التي ما زالت فيروز ترددها - إنشاء فارغ وشعر عمودي؟ وهل رائعة القدس لتميم البرغوثي قصيدة ميتة، وشعر عمودي؟ أنا أترك للقارئ المنصف الحكم على هذا؟

6. أبرز الكتاب الأهمية الدينية لمدينة القدس، ولا أظن أن أحداً ينكر أو ينتقص من هذه الأهمية، فهي أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، وفيها كنيسة القيامة وفيها آلاف المعالم الإسلامية والمسيحية، فكيف يمكن تجريد القدس من قدسيتها ومقدساتها؟ وهل الكتاب فعلاً قد اختصر القدس بشكل مريب؟ وهل فعلاً تم اختراع قدس أخرى؟ كما ذكر بعض الناقدين للكتاب.

7. لم يكن المقصود إنشاء موسوعة شاملة مانعة جامعة عن القدس، وإلا لاحتاج الأمر إلى عشرات المجلدات، ولكن الخطة مقدمة لطلبة المدارس من الصف الأول حتى الصف الثاني عشر، وما يقدم لطلبة المدارس له مواصفاته التربوية الخاصة التي تراعي النمو العمري والذهني والانفعالي للطالب.

8. هذا الكتاب ليس هو النشاط الوحيد الذي قامت به وزارة التربية والتعليم العالي، وهو يأتي متكاملاً مع نشاطات أخرى أعدت لهذه المناسبة، وكم تمنينا أن تقوم المراكز التربوية بإعداد كتب أو خطط أو نشاطات لتكون مكملةً لهذه الأنشطة ورديفاً لها تسد النقص إن وجد، وعندها سنقدم الشكر أولاً لهذه المراكز على اهتمامها ومشاركتها، وسننقد هذه الكتب أو الخطط نقداً علمياً موضوعياً يؤدي إلى تطويرها وتحسينها.

9. نرحب بأية فكرة أو إضافة، أو وجهة نظر، تؤدي إلى تطوير هذا الكتاب، وأي كتاب في المناهج، ولكن بعد الاطلاع الفعلي على هذا الكتاب، أو أي كتاب في المناهج، ودراسته، بعيداً على الأحكام العامة المسبقة، والانطباعات الفردية غير الموضوعية، فليس دقيقاً أن المناهج الفلسطينية تقوم على الانتقائية وغياب الرؤى الفلسفية والسياسية الواضحة، كم تمنينا ونتمنى على مثقفينا وتربوييننا ألاّ يبخلوا علينا بوجهة نظرهم لتساعد في تطوير المنهاج الفلسطيني، وألاّ نكتفي فقط بالنقد، لمجرد النقد، وحبذا لو طرحت بدائل لما ينقد، إذا كان غير مناسب. ونكون شاكرين إذا تم تزويد مركز المناهج بها، حتى تكون فعلاً الشراكة حقيقية.

الهامش

[1] المقصود هنا هو الندوة التي عقدت في مركز القطان، ومن المنطلق المهني وأيماننا بالحوار ننشر تعقيبات الوزارة كما وردت بناء على طلب منا (هيئة تحرير رؤى تربوية).

من فعاليات مدرسة غزة للموسيقى.